

# الاستلاب

## في الفكر السلفي المجدد بالمغرب

### ١ - القضايا الأساسية للسلفية الجديدة من خلال علال الفاسي (١)

مجدد لتشريعة الإسلامية ، واستطاعت ، على الأقل في فترة مقاومه الاستعمار ، استقطاب نخبة من الشباب المغربي وتنظيمها سياسيا في حزب الاستقلال . ونذكر من شيوخ هذه الحركة في بدايتها الشيخ أبا شعيب الدكالي ( توفي سنة ١٩٣٧ ) ، والشيخ مولاي العربي العلوي ( توفي سنة ١٩٦٣ ) ، اذني يصبر الاستاذ علال الفاسي من أبرز تلامذته اذني سيفودون هذه الحركة ويعطونها ابعادا نظريه وسياسية مهمة (٢) .

١ . ٢ . - يقترن اسم علال الفاسي بعده حاسمة من تطور الفكر السلفي الجديد في المغرب وامتزاجه بالحركة الوطنية ضد الاستعمار الفرنسي . ردد ظهر علال الفاسي على المسرح السياسي المغربي كمفكر ومصالح سلفي منذ انعقد الثالث من هذا القرن . وساهم في طبع الحركة الوطنية انغربية بالطابع اذني ، لانه كسابقه من السلفيين ، لم يكن يرى في الاستعمار سوى حرب صليبية جديدة نسن ضد المغرب المسلم ، واعبر « جيش الفسزو الفرنسي اذني فرض حيايه على البلاد ، جيشا غايته القضاء على الاسلام واحلال المسيحية مكانه ، لا مجرد غزو استعماري يبحث عن مصالح مادية » (٣) .

ويعكس تفكير علال الفاسي ، وهو في نظرننا نموذج رئيسي وبارز للفكر السلفي الجديد بالمغرب ، بوضوح تام اشكالية الحركة الوطنية الدينية والسياسية ( ارتبطت الحركة الوطنية المغربية دائما بالدين ولم تحاول الا نادرا أن تشكل في اطار نظرية عقلانية وعلمانية ، ويبرز هذا مدى هيمنة العنصر الديني كايديولوجيا في المغرب ) . وقد ساهمت في تكوين تفكير علال الفاسي وتوجيهه نحو الطريق

١ . ١ . - ان أهم ما يميز الحركة السلفية القديمة في المغرب ، التي ترجع جذورها الى النصف الثاني من القرن الثامن عشر ، عن الحركة السلفية الجديدة ، التي ظهرت خاصة بعد فرض الحماية الاجنبية على المغرب في سنة ١٩١٢ ، والتي تبلورت في حركة سياسية وطنية منظمة بعد حرب الريف ( ١٩٢١ - ١٩٢٦ ) ، وخاصة بعد صدور الظهير البربري سنة ١٩٢٥ ، ما يلي :

- لقد اقتصرت الحركة الاولى على اصلاح ديني متشدد ، وعلى محاربة الطرق الصوفية . وقد قاد هذه الحركة بعض ملوك المغرب انفسهم مع حاشياتهم من العلماء ورجال الدين ، وذلك امتدادا من عهد السلطان محمد بن عبد الله ( توفي سنة ١٧٩٠ ) الى عهد مولاي الحسن ( توفي سنة ١٨٩٤ ) . وتاثر السلفية في هذه المرحلة بمبادئ الحركة الوهابية التي نشرها الشيخ محمد بن عبد الوهاب ( ١٧٠٣ - ١٧٨٧ ) في الجزيرة العربية .

- أما السلفية الجديدة ، التي ترجع مرحلتها الاولى الى بداية وصول اصلاء الحركة السلفية في المشرق ، التي قادها محمد عبده تلميذ جمال الدين الافغاني ، الى المغرب على يد شيخ سلفي مغربي يسمى عبد الله السنوسي ( توفي سنة ١٩٣١ ) ، فلم تقتصر على محاربة الشعوذة والطرق الصوفية ، بل امتزجت ، بعد الحرب العالمية الاولى ، بالحركة الوطنية ضد الاحتلال الاجنبي ، واصبحت بعد أن تبنت عددا من الشعارات السياسية الليبرالية ، ايديولوجية هذه الحركة .

نادت الحركة السلفية الجديدة باصلاح سياسي في اطار فهم

( ٢ ) للتوسع في موضوع نشأة الحركة السلفية في المغرب راجع : **فصل « نشأة الحركة السلفية في المغرب »** من كتاب علال الفاسي « حديث المغرب في المشرق » ، القاهرة ، المطبعة العالمية ١٩٥٦ .

- أيضا مقال جميل ابو النصر :

« The Salafiya Movement in Morocco » in Social Change : The Colonial Situation . New-York , Edit . John Wiley , 1956 .

( ٣ ) نفس المصدر ، ص ٤٩٠ .

التشريع الإسلامي . يقول علل الفاسي موضحاً هذه الفكرة : « السلفية الجديدة ترفض بالطبع فكرة لا دينية الدولة ، وبذلك تجعل الحكومة الإسلامية حارساً على الأخلاق والفضيلة في وسط الأمة » . ويفييف مؤكداً : « ... وهي ترى أن من الواجب ألا يتعد المسلمون عن القانون المستمد من الشريعة . وللوصول إلى ذلك يجب العمل على أن يصبح منظوراً للفكر الإسلامي أصولاً وفروعاً ، كمادة تشريع مدني عام » ( ٨ ) .

هـ - وتفسر التأخر الاجتماعي والمظالم الاجتماعية بعدم التطبيق الكامل للدين . يقول علل الفاسي : « ... من الصعب أن نفتقد أن ما هو جار في بلادنا من مظالم أو ما نحن متسكون به من قبائح ، هو أثر من آثار الإسلام ( ... ) ، أن تحريف الإسلام وقع في بلادنا منذ زمن بعيد وأن تعليم الدين نفسه أعطي لنا بالكيفية التي ترضي رجال السلطة والمال من أبناء قومنا أولاً ثم من الأجانب ثانياً » ( ٩ ) .

و - وترى أن المشكل الرئيسي الذي ابتلي به المغرب هو الانحراف الفكري . يقول علل الفاسي موضحاً هذه القضية : « .. ان النكبة من هنا بدأت ، من الاحتلال الفكري الذي تفلقت في نفوس أجيال من قومنا باسم التقدمية والديموقراطية والاشتراكية دون تعق لمعاني هذه الكلمات ونفوذ لفحواها » ( ١٠ ) .

ان نظرة سريعة لهذه القضايا السلفية كما تعرضها مؤلفات علل الفاسي ، تبرز بوضوح تام المضمون الرئيسي للحركة السلفية الجديدة : انها حركة اصلاح سياسي واجتماعي في اطار بعث وتجديد دينيين . وما سيكشفه تحليلنا من عناصر فلسفية وسياسية منتقاة من هنا وهناك ، إنما يعبر عن مظهرها الانتقائي والتوفيقي . وبإمكاننا أن نشير ومنذ الآن ، انطلاقاً من هذه القضايا ، إلى بعض مظاهر استلاب الفكر السلفي : رفض النظرة التاريخية وعدم اعتبار العامل التاريخي ، والزعم بأن الأفكار القديمة معادلة للأفكار الحديثة ، وتقديم الظاهرة الدينية كأحدى ظواهر الحياة الاجتماعية على جميع الظواهر الأخرى واعتبارها حاسمة .

## ٢ - حول الأرستقراطية الفكرية

٢ . ١ - تأخذ أولوية الفكر على الوجود ، وبالتالي استقلال الفكر عن الشروط المادية والاجتماعية ، مركزاً مهماً في سلفية علل الفاسي ، التي يمكن الكشف فيها عن نزعة مثالية ، ولكن لا بالمعنى الفلسفي لهذه الكلمة ، إذ ان أهمية الفكر وأولويته لا تظهران عنده في المستوى الانطولوجي أو في المستوى المعرفي ، بل في اعتبار الفكر - الديني والأخلاقي بصفة رئيسية - عنصراً حاسماً في كل تطور وفي كل امتياز اجتماعي .

وتمتدح غالباً مع هذا التقدير الكبير للفكر ( الديني والأخلاقي ) أفكار وآراء حديثة مقتبسة من هنا وهناك . مثل الدعوة إلى الإيمان بالعقل والدفاع عن حرية الفكر والإيمان بالتطور ، ولكن بكيفية سطحية توفيقية . ويعد كتاب علل الفاسي « النقد الذاتي » ، مثلاً بارزاً لهذا المزج الانتقائي ، وتكفي نظرة سريعة إلى عناوين فصوله للاحاطة بمدى غزارة استعمال المقولات الفكرية الحديثة للعرض الخارجي

( ٨ ) علل الفاسي « الحركات الاستقلالية » ... صفحات ١٣٦ - ١٣٧

( ٩ ) علل الفاسي ، « النقد الذاتي » ، بفسداد وبيروت ، دار الكشف ، ١٩٥٩ ، ص ٢٥١ .

( ١٠ ) علل الفاسي ، « دائماً مع الشعب » ، الرباط ، مطبعة الرسالة ١٩٦٧ ، ص ٢٢ .

السلفي عدة عوامل ، نذكر منها بالإضافة إلى المعطيات التاريخية التي عاشها المغرب في مطلع القرن العشرين ، انتماءه الاجتماعي إلى أسرة محافظة وعائلة من الأسر الفاسية ذات الأصل الأندلسي ( ٤ ) . والتعليم الديني الذي تلقاه في جامعة القرويين على بعض مشايخ الحركة السلفية ، واطلاعه على أصداء الحركة السلفية في مصر ، خاصة من خلال مؤلفات محمد عبده ، وأخيراً اطلاعه النسبي على الثقافة الغربية .

وتدور الفكرة المحسورة لسلفية علل الفاسي حول قضية أساسية هي الدعوة إلى تجديد فكري واصلاح اجتماعي في حدود المحافظة على الدين الأصيل واحترام التقاليد الوطنية ، ومعارضة كل نزعات التجديد المنفصلة عن الدين والمتأثرة مباشرة بالمازج السياسي الغربية .

١ . ٣ . ويمكن إبراز الأفكار التالية في هذه القضية الأساسية :

أ - تهدف السلفية الجديدة كما يمثلها علل الفاسي إلى بعث مجد السلف العظيم . يقول علل الفاسي في هذا الصدد : « ... أن الحركة السلفية هي التي تريد الرجوع بالدين إلى أصله الأصيل ومصدره الثقي لتزيح عنه كل ما الصقته الأجيال به من آثار الجمود والجحود وما غطت به حقايقه الناصعة تأويلات المتطفلين وتحريفات الجاهلين ( ٥ ) .

ب - وتعمل على إيقاف الوعي ونشر تجديد فكري في حدود الدين ، يقول علل الفاسي موضحاً هذا العنصر : « ... فهي حركة تتطلب فتح ذهن البشري لقبول ما يلقي إليه من جند وقياسه بمقياس المصلحة العامة ، لارجاع المجد العظيم الذي كان للسلف الصالح في حظيرة الأيمان وحظيرة العمل » ( ٦ ) .

ج - وتعتبر ان الدين الإسلامي يشمل كل الحقائق وإمكاناته تجاوز الثقافة الغربية . يقول علل الفاسي : « ... نحن نعتقد ان الإسلام ومعه الوطنية يستطيع أن يمزج كل ما في الفلسفات والنظريات الغربية من حياة وحركة وينمدها بما هو خالد أبدي » ( ٧ ) .

د - وترفض فكرة فصل الدين عن الدولة وتدعو إلى سيادة

( ٤ ) ولد علل الفاسي فسي فاس سنة ١٩١٠ ، والتحق بجامعة القرويين كطالب سنة ١٩٢٦ . وعمل في تنظيمات الحركة الوطنية إلى سنة ١٩٣٧ ، حيث نفي إلى الكابون ، وبقي في المنفى إلى سنة ١٩٤٦ . واقام في القاهرة من سنة ١٩٤٧ إلى سنة ١٩٥٦ ، ثم عاد إلى المغرب ، بعد أن أصبح مستقلاً ، وانتخب رئيساً لحزب الاستقلال . وعين وزيراً للشؤون الإسلامية من سنة ١٩٦١ إلى سنة ١٩٦٣ ، وبعد ذلك اضطر حزبه أن ينضم إلى المعارضة . وشغل منذ تلك الفترة منصب الاستاذية في كلية الحقوق ودار الحديث الحسينية . وتوفي فسي ١٣ ماي ١٩٧٤ .

( ٥ ) علل الفاسي ، « حديث المغرب في المشرق » ، القاهرة ، المطبعة العالية ١٩٥٦ ، ص ٣ .

( ٦ ) علل الفاسي ، « الحركات الاستقلالية في المغرب العربي » ، تطوان - دار الطباعة المغربية - ١٩٥٦ ، ص ١٣٥ .

( ٧ ) علل الفاسي ، « عقيدة وجاهد » ، الرباط ، مطبعة الرسالة ١٩٦٠ ، ص ٨٢ . ماذا يقصد علل الفاسي هنا بالحركة الوطنية ؟ ان الحركة الوطنية في رأيه هي حركة الدفاع ضد الغزو الاجنبي المسيحي ، والتمسك بالتقاليد الاصيلية والدعوة إلى اصلاح اجتماعي على ضوء الماضي المجيد . وواضح هنا خلو هذه النظرة من الاصلاح الاجتماعي الجذري لقاء التفاوت الاجتماعي اللاطبعي بين المواطنين .

تعود التحرر تدريجيا من منطق الشوارع والترفع قليلا عن التأسر  
بواقعية الحياة» ( ص ٤٩ ) . وبذلك يحدد بعض عناصر ايدولوجية  
الارستقراطية القريبة الدينية والسياسية .

٢ . ٣ - ومن البديهي الا يرى علال الفاسي من منظور الارستقراطية  
الفكرية و « المحل الرفع » ، من كل مظاهر البؤس الاجتماعي الصارخة :  
الاستغلال والفقر والجهل والجوع والمرض ، سوى مظاهر التدهور  
الاخلاقي والانحراف الفكري ، وكان الغزو الاستعماري قديمه وحديثه  
- وهو السبب الرئيسي الذي يفسر به التأخر الاجتماعي - قد  
استهدف بصفة خاصة افساد الروح والفكر اكثر مما استهدف  
استغلال البلاد ثروات وسكانا .

وهكذا تتحول ، في اطار اشكالية علال الفاسي ، أزمة المجتمع  
المغربي الى أزمة قيم ! وتلك نظرة لا يختص بها تفكيره وحده ، فهي  
سمة بارزة في الفكر السلفي بصفة عامة ، الذي يقلص المشاكل  
الاجتماعية في مجال اخلاقي مجرد ، ويلحق الظاهرة الاجتماعية  
بالظاهرة الاخلاقية (١٤) .

انها نظرة غير جدلية للواقع الاجتماعي ، تجهل وتتجاهل  
الجنور الحقيقية للمشاكل الاجتماعية ، وبالتالي تقترح حولا  
ايدولوجية عقيمة لتدارك التأخر : تقويم الاخلاق ، الرجوع الى  
الاصالة ، محاربة الانحراف الفكري ، باختصار ، حصر الاصلاح في  
مثال الانسان لا في الانسان الواقعي ، أي « ... يجب ألا يكون  
المثال هو الإدمي نفسه ( المواطن المغربي ؟ ) بل هو ما يصل اليه هذا  
الإدمي من غاية عليا » ( ص ١٠٥ ) .

وهي أيضا نظرة انتهازية تخفي مصالح طبقية ، لانها موجهة  
بصفة خاصة الى جماهير الشعب ، التي من العيب الزعم بأنها  
تعاني فقط أزمة اخلاقية ، بينما يدعم « الموجهون » بكيفية مستمرة  
مصالحهم المادية بمختلف الوسائل .

### ٣ - حول « عقلانية » سلفية علال الفاسي

٣ . ١ - يعرض علال الفاسي كثيرا على أن تظهر سلفيته  
الجديدة في كساء عقلاني لابرار جديتها ومسايرتها للعصر . ولكن  
هذا الحرص لا يؤدي الا الى تعمييق وابرار ايدولوجية في تفكيره .  
فدعوته الى انتصار التفكير العقلاني نطل طافية فوق سطح مذهبه  
كشيء شاذ ، لا تنفذ الى عمق القضايا الاساسية ولا تتحول الى  
منهج للتحليل .

ماذا يقصد مثلا عندما يقول ( ص ٦٥ من النقد الذاتي ) انه  
من الواجب أن « ينصر العقل في بلادنا ويصبح المسيطر على جميع  
مبادئ الحياة ، وتكون له الرقابة على اخلاقنا وسلوكنا » ؟ هل يقصد  
انتصار المبادئ العقلانية التي نودي بها في القرن الثامن والتاسع عشر  
في المجتمعات الغربية ؟ أن ذلك إن المستبعد جدا ، لان من جملة تلك  
المبادئ مثلا مبدأ فصل الدين عن الدولة ، وهو مبدأ يناقض صراحة  
مبادئ الدعوة السلفية ( راجع ، د ، ا ، ٣ ) .

ويبدو أن علال الفاسي يجهل ان التفكير العقلاني الذي يدعو  
اليه هو من شعارات الثورات البرجوازية الأوروبية ، اذ ينسب الى  
البرجوازية نمط تفكير لا ينطبق عليها . يقول مثلا ( ص ٢٠ ) : « يجب

J . P . Charnay ، « Courants réformateurs dans  
la Pensée Islami que contemporaine » ، in Normes et  
Valeurs dans l'Islam contemporain ، ouvrage collectif ،  
Paris ، Edit . Payot 1966 . pp . 226 - 227 .

للافكار مع بقاء العمق والمضمون وعظا دينيا بحثنا (١١) .

ورغم ذلك يمكن القول أن الفكرة المهيمنة في النقد الذاتي هي  
مسلمة ان الفكر هو اسمى ما في الانسان ، وأن لا شيء يمكن اصلاحه  
بدون تقويم الانحراف الفكري ، وأن سيادة الارستقراطية الفكرية هي  
شيء ضروري لانها وحدها القادرة على ازالة طريق دعوة العودة الى  
الاصالة ، وأن الفكر هو مقياس التمييز الاجتماعي بين الناس . وما  
هو هذا الفكر السامي ؟ انه « الفكر الذي يستطيع التحرر من القيود  
التي تحيط به من كل الجهات ، ويسمو فوق آفاق النظر العالمي  
ليشرف على كل شيء من المحل الرفع » (١٢) .

وليس من الصعب الانتقال من مسلمة الفكر السامي الى النتائج  
المتربة عنها : فالفكر الديني والاخلاقي هو العامل الحاسم في كل  
تطور ، والمفكرون هم الممتازون لانهم رواد كل اصلاح ، اذ من الواضح  
انه ما دام كل تأخر اجتماعي ، في اطار اشكالية علال الفاسي ،  
« ناشئا » عن انحراف فكري متفاوت المستويات ، يصبح الدور  
الرئيسي في كل اصلاح اجتماعي مناطا بالفئة التي يطلق عليها علال  
الفاسي « الطبقة المتورة » ، التي تضم نخبة مفكري الامة وعلماءها (١٣) .

٢ . ٢ - ويجب ان تتميز هذه الطبقة المتورة بارستقراطية  
الفكر ، لانه في نظر علال الفاسي ، مهما كانت الديمقراطية حسنة ،  
فان « الارستقراطية شيء ضروري لتوجيه الامة » ( ص ٤٦ ) .  
وواضح أن لا علاقة لمصن « ارستقراطية » التي تعني حكم وسيادة  
النخبة الممتازة للفكرة والفنية والرموقة اجتماعيا ، بالمضاهون التاريخي  
للدعوة السلفية ، الذي هو قبل كل شيء تجديد واصلاح في اطار  
الدين . ولعل قصد علال الفاسي هو التعبير عن « أهل الحل والعقد »  
عند القدماء ، وهم العلماء والفقهاء وكل من يملك سلطة معنوية أو  
اقتصادية أو قبلية . وفي سائر الاحوال ، فان استعمال كلمة  
ارستقراطية موح جدا وكاشف للصبغة الطبقيّة لسلفية علال الفاسي :  
انها في مرحلتها الاولى كانت ايدولوجية الارستقراطية المغريية  
الدينية والعلمية والسياسية قبل أن تتحد حولها في فترة التناقض  
الاستعماري مختلف الطبقات الاجتماعية ، وان تتبناها بصفة تكنيكية  
البرجوازية الحاكمة في ما بعد الاستقلال .

ويتحدث علال الفاسي عن هذه الطبقة المتورة ، التي يبدو  
انها ورثت الفكر فطريا ، بأسلوب افلاطوني محلق ، يقول ( ص ٤٧ ) :  
« والمفكرون هم الجديرون بالفكر وأن ادعى الناس مشاركتهم فيه لانه  
لكل واحد الحق في أن ينظر ويفكر ويبدى ما شاء من الآراء والنظريات ،  
ولكن النتيجة في النهاية هي انتصار هؤلاء الممتازين الذين يحكم لهم  
الفكر نفسه باستحقاقهم وحدهم له » .

ومن شروط ارستقراطية الفكر ، ومن المؤهلات الاولى المطلوبة  
من هذه الفئة المتورة الممتازة اجتماعيا لانها ممتازة « فكريا » أن تكون  
قادرة على عدم التأثر بمنطق الشارع ، لان أخطر ما يواجهه هؤلاء  
المفكرون الممتازون هو منطق الشارع ، وأن تستطيع التحرر من واقعية  
الحياة ، لكي تفكر في حرية وتنفذ الى أعماق الأشياء .

ويلخص علال الفاسي هذه الشروط : « ... واذا أردنا أن  
نكون من نفوسنا هذه الطبقة الرفيعة من جهة الفكر ، وجب علينا أن

( ١١ ) نذكر من هذه العناوين مثلا : « التفكير شموليا » ، ارستقراطية  
التفكير ، « حرية التفكير » ، « التحرر الفكري » ،  
« التفكير بالمثال » الخ ..

( ١٢ ) علال الفاسي ، « النقد الذاتي » ، ص ٤٦ .

( ١٣ ) يجب فهم كلمة « عالم » في اطارها الديني ، ولا تخفى أهمية  
الدور ايدولوجي الذي تقوم به هذه الفئة - التي كان  
علال الفاسي من أبرز أعضائها - في المجتمع المغربي .

أن نتحرر من ذهنية الطبقة البرجوازية التي تخشى من كل جديد وتخاف من كل تفكير في أي تطور يطرا عليها ، فان هذه الطبقة قضت على نفسها بهذه الروح ، وتكاد تقضي علينا جميعا اذا لم نعلم كيف نتمتق من قيودها » . فاي طبقة برجوازية يقصد ؟ اذا كان يقصد البرجوازية الغربية فالمعروف انها اول من نادى بال عقلانية . واذا كان يقصد البرجوازية المغربية فمن أي منبر يتحدث هو نفسه ؟ هناك إذن التباس في استعمال مفهوم « العقل » وعبارة « طبقة برجوازية » ، وهو التباس يعكس انتقائية تفكير علال الفاسي .

ونعتقد اننا لن نجد كثيرا عن الصواب اذا اولنا عبسارة « انتصار العقل » بمعنى انتصار العقلية التقليدية : فالطبقة المفكرة التي يعتمد عليها علال الفاسي في نشر مبادئ العقل هي طبقة علماء الامة ، كما سبق أن أشرنا إلى ذلك . وفي هذه الحالة سيعني انتصار العقل سيادة عقلية هؤلاء العلماء المحافظة .

ويجب أن نفهم نفس الشيء من كلام علال الفاسي عندما يقول ( ص ٦٥ ) : « .. علينا مقاومة الجمود والرجعية والتقاليد البالية وتبليغ رسالة العقل الصحيح إلى الامة » ، وكذلك عندما يقول ان « اصلنا الاساسي هو الايمان بالحريسة والاعتزاز بالعقل السذي لا يبلى » ( ص ٩٩ ) . فليست رسالة العقل الصحيح هنا هي مبادئ العقلانية البرجوازية ، لان هذه المبادئ تتناقض جنريا مع القضايا السلفية . ومن ناحية أخرى ، فهذه المبادئ ، رغم احتوائها على وعي زائف ايديولوجي ، تعتبر رفضا وابتعادا عن العصور الوسطى بينما الدعوة السلفية هي أساسا دعوة لحياء مجد السلف العظيم !

وفضلا عن ذلك ، فان رسالة « العقل الصحيح » حسب مفهوم علال الفاسي ، لا تعطي أهمية للتطور التاريخي ولا لمحركاته الاساسية . انها رسالة العقل التوثيقي الذي يامل في ادماج الماضي القديم في الحاضر المعاصر بطريقة سحرية متخفية الزمن وعوامل التطور ، ويسعى إلى المحافظة على وحدة الامة في اطار التناقضات والتمايزات الاجتماعية . ان من شروط العقل الصحيح « أن يكون مساعدا على بقاء هذه الامة ومتابعة سيرها إلى الامام ، وكل فكرة تعمل على حل رابطتها وتمزيق وحدتها والقضاء على كيانها ( ... ) فهي فكرة لا يمكن ولا يجوز أن تجد لها محلا من قبولنا واعتبارنا » ( ص ١٠١ من النقد الذاتي ) .

٢ . ٢ - ويشيد علال الفاسي ، في اطار نشر الفكر العقلاني ، بحرية التفكير ، ويرقى بمفهوم « الفكر الحر » إلى درجة تجعل منه قيمة مطلقة : إذ بالنسبة إليه يجب التحرر من كل سيطرة غير سيطرة الفكر المؤمن بالحريسة ( ص ٧٦ ) . ويعتبر الوجود من غير فكر حر عدما ( ص ٩٩ ) ، والخطر على الدولة يكمن في ضياع الفكر الحر اكثر مما يكمن في الازمات الاقتصادية ( ص ١٨٤ ) .

ان « حرية الفكر » التي يتحدث عنها علال الفاسي تحمل في مضمونها التباسا وتناقضا : فاذا كان يقصد بها حرية الفكر في الانتقاد فان هذا الانتقاد يظل في اطر معلق وخارجا عن الشروط الاجتماعية والتاريخية ولا يمس جوهر المشاكل . يقول مثلا : « يجب أن نحذر الفكر العام من خرافات الماضي ومضلات العصر الحديث » ( ص ٧٦ ) وليس هناك مانع في أن نتفق معه عندما تكون الغاية من الانتقاد هي « تخليصنا من خرافات الماضي » ولكن يجب أن نتريث قليلا قبل إصدار حكم ما عندما يتعلق الامر بالتحرر من « مضلات العصر الحديث » !

فما هو مقياس التخليص هنا ؟ ان مضلات العصر الحديث هي كل ما يخالف القضايا السلفية وينعارض مع التراث القديم ولو كان علما . وبذلك يصبح مقياس الحكم هو الماضي نفسه أو على الأقل تصور خاص لهذا الماضي ، تصور مثالي تنتزع منه صورة المستقبل

المأمول . فكيف يمكن التحرر من خرافات الماضي على ضوء ماض يعمل هو نفسه قسما كبيرا من الخرافة ؟ وكيف يمكن الحكم انطلاقا من هذا الماضي على أن نظريات العصر الحديث مفضلة ؟ ما دام الفكر « الحر » مقيدا بالانتقاد في حدود التمسك بقيم الماضي فاي معنى يبقى إذن لهذه الحريسة ! وما جدوى الانتقاد ؟

ان حرية الفكر عند علال الفاسي ، فضلا عن محتواها الايديولوجي ( ما هي الفئة الاجتماعية التي ستتمتع بها عمليا ) ، وفضلا عن مثاليتها ( عدم ارتباطها بالشروط الاجتماعية والتاريخية لتطور الفكر ) ، هي حرية الانتقاد المقيد ، انتقاد كل شيء بشرط عدم التخلي عن التراث الماضي ، انتقاد لا يهدف إلى تصفية الحساب مع الماضي والتحرر منه وفهمه على ضوء معطيات الحاضر ، بل إلى العودة إليه والتطابق معه وحيائه من جديد !

٣ . ٢ - ويريز موقف علال الفاسي من الثقافة الغربية ( يجب أن نفهم هنا من الثقافة الغربية بصفة خاصة النظريات والمبادئ « الهدامة » و « الافكار المستوردة » التي تهدد الاصاله ووحدة الامة ) ، مظهرا آخر لتناقض عقلانيته . ان مفهوم الثقافة الغربية يرتبط عنده بالفزو الاستعماري المسيحي . وبما ان هدف هذا الفزو كان المسّ بالقيم الروحية اكثر مما قصد إلى استغلال الثسروات الانسانية والطبيعية للبلاد ، فان رفض هذه الثقافة سيعلن ، لا باسم التحرر الاجتماعي والاقتصادي ، بل باسم الدفاع والمحافظة على القيم والتراث .

وبالرغم من أن هذه هي السمة البارزة في تفكير علال الفاسي ، فان موقفه يعتبره الاضطراب والتناقض . كيف يجب أن نفهم مثلا دعوته إلى ضرورة الايمان بالعقل وبحرية التفكير بل باستقراطية التفكير هذه وكلها شعارات تيارات معينة من الثقافة الغربية ؟ انه يقتبس من هذه الثقافة التي يرفضها ، بل كثيرا ما يلجأ إلى مقولات هذه الثقافة للدفاع العاطفي عن التراث والاصالة مع بقاء رؤيته لمجتمعه دينية وأخلاقية . ولم يخف مرارا أعجابه بما يعتبره سببا لتقدم الغرب : الايمان بالتطور وبالعلم وبحرية الفكر ، ولكنه لم يجعل من « مشيرات » هذا الإعجاب أسلوبا ومنهجا لتحليل مجتمعه .

ليست الثقافة الغربية ، في سائر الاحوال ، بالنسبة إليه سوى خليط من تاريخ الغرب وأفكاره وثوراته المختلفة وفلسفاتها (١٥) حبه الينا جعلنا وتأخرنا ، لان المقلوب يتأثر دائما بالغالب ويمسك فخره هو بأشياء يحسب انها غير موجودة الا عند الفاتحين الاقوياء (١٦) .

وواضح ان علال الفاسي لا يكاد يميز في هذه الثقافة التي يرفضها بين النواحي العلمية الايجابية التي أصبحت مكتسبات انسانية ، وبين ما هو من رواسب الاستعمار قديمه وحديثه . وعندما يسمح علال الفاسي بالاخذ من هذه الثقافة (١٧) ، يحرص على ألا يتم ذلك الا في حدود عدم المسّ بالقيم الروحية ، يقول في

( ١٥ ) علال الفاسي ، « دفاع عن الشريعة » ، الرباط ، مطبعة الرسالة ١٩٦٦ ، ص ٦٤ .

( ١٦ ) علال الفاسي « النقد الذاتي ... » ص ٢٥ .

( ١٧ ) عبارة « يسمح » هنا موجهة خاصة إلى عموم الشعب ، اما بالنسبة لأبناء الطبقة التي يمثلها علال الفاسي فان الاقبال على هذه الثقافة يعد امتيازاً . يقول محمد عابد الجابري في هذا الصدد : « ... ومن غريب المفارقات ان هذه النهضة الاجتماعية التي قادت الحركة الوطنية أو انتسبت إليها ، كانت بمقدار ما تهتج على لا قومية التعليم في المغرب ، بمقدار ما تدفع بانائها نحو المدارس الاوروبية » . راجع : « أضواء على مشكل التعليم بالمغرب » ، الدار البيضاء ، دار النشر المغربية ١٩٧٤ ، ص ٤٥ .

هذا الصدد : « ... من حقنا أن نختار ولكن في دائرة الدينس ومقاييسه » ( دفاع عن الشريعة ، ص ٤٤ ) ذلك لأن التأخر لا يمكن أن يتجاوز بقبول مبدأ « الآلية » الدينية ( ١٨ ) .

وهنا يتعدى المشكل أكثر ، فتعيين ما يوافق وما يعارض الدين سيظل دائما من اختصاص « علماء » الأمة ، ومن الصعب الاعتقاد بأن هؤلاء سيؤدون هذه المهمة بدوافع دينية صرفة وفي تجرد عن التائر بالمناخ السياسي السائد .

وواضح أن البديل الذي يقترحه غلال الفاسي ( على من ؟ ) للثقافة الغربية هو العودة إلى الأصول والتراث ، بكل ما يكتنف هذه العودة من أوهام ووعي زائف . أن الخلاص من الغزو الثقافي الغربي يكمن في الاستجابة للدموة السلفية ، أي في الاستجابة « لنور حركة تهدي إلى الحق وتدل على السبيل الأقوم ، لها أنصار في كل جبهة والسنة ناطقة في كل إقليم » ( دفاع عن الشريعة ، ص ٦٣ ) .

ولا يخلو أحيانا انتقاد غلال الفاسي للثقافة الغربية من ملاحظات مهمة لو تم تحتو على وعي زائف ، فهو محق عندما يتبرر الثقافة الغربية امتيازها مقصورا على فئة معينة من المغاربة ( هل يمكن أن نستثني أبناء طبقته من هذه الفئة ؟ ) أي فئة « ... رجالنا الذين هم أهل الحل والعقد ( ... ) الذين لا يرون إمكانية للحاق بالغرب إلا إذا قبلنا طرق عيشتهم على علاقتنا ... وأساليب تفكيرهم برمتها » ( دفاع عن الشريعة ، صفحات ٦٣ - ٦٤ ) .

ولكن طبيعة المنطلقات السلفية تمنعه من أن يرى أبعد من هذه الملاحظة ، كان يدرك مثلا أن هذه الفئة التي يقصدها ، إنما تدغم بهذا الاختيار امتيازاتها ومصالحها ، وليس الأمر بالنسبة إليها مجرد حب لتقليد الغرب ! وربما لا ترى هذه الفئة إطلاقا ضرا في أن ينتقدها مفكر مثل غلال الفاسي ، لأن انتقاده يدغم ضمنيا وصراحة موقفها ، ما دام لا يدعو إلى تعميم إيجابيات هذه الثقافة بقدر ما يدعو إلى التخلي عنها والعودة إلى الأصول ، أي إلى الفكر التقليدي . وماذا يصير هذه الفئة إذا هي أرضت اليوم غلال الفاسي في تبني سياسة إحياء التراث كأيديولوجية لتدعيم امتيازاتها وسيطرتها تقنيا وعلميا ؟ ( ١٩ ) .

#### ٤ - التناقض في الفكر السلفي عند غلال الفاسي ( ٢٠ )

٤ . ١ - يؤكد غلال الفاسي مرارا ، في جلّ كتبه ، على ضرورة الإيمان بالتطور واعتبار التحول الاجتماعي ظاهرة طبيعية . ويفسر أحيانا كثيرة تأخر المجتمع المغربي بعدم إيمانه وفهمه لقوانين التطور والتجديد المتواصل ، تلك العناصر التي يتأسف على توفرها في العقليّة الغربية فقط . يقول ( ص ١٦٧ من النقد ... ) : « إذا كان للغرب من فضل فهو كونه دائم الحركة ولا يرضى بما نال ، إن روحه التي تنقصنا هي الإيمان بالتطور الفكري الدائب واعتبار ما

( ١٨ ) غلال الفاسي « محاضرتان عن مهمة علماء الإسلام » ، الرباط ، مطبعة الأمية ١٩٧٢ ، ص ٤٤ . يقصد بالآلية الدينية الاستلاب الناتج عن الإيمان ببعض « الفلسفات الهدامة » .

( ١٩ ) يقول الأستاذ الجابري في هذا الصدد : « ... أما اليوم ( يونيو ١٩٧٣ ) فاننا أمام حركة واسعة تقوم بها الأوساط الرسمية من أجل ( بعث التعليم الأصلي ) وتوسيع قواعده الابتدائية والثانوية وتوفير كل ما يلزم من أجل نموه وازدهاره » ( أضواء على مشكل التعليم » ، ص ٧٥ .

( ٢٠ ) نقصد بهذا العنوان في نفس الوقت إبراز التناقض في هذا الفكر وانتقاد مفهومه عن التناقض والتحول الاجتماعي .

كان في عهد سابق ليس من الضروري أن يستمر في العهد الأخرى » .

ولذلك يدعو إلى ضرورة التجديد الجذري وعدم الخضوع المطلق لتحكم الماضي لأن ما قرره عصر سابق في نظره لا يجب أن يتحكم في ما يريده العصر الموالي ، فالتجديد لا يعني دائما الترميم ، بل يعني حتى الاستبدال ، وأن كان لا يقصد منه عدم المتابعة .

وتلك « خواطر » قيمة ، ولكنها مهما بدت ثورية ، ليست من نوابت تفكير غلال الفاسي ، ولا أصداها لها في مضمون وعمق سلفيته الجديدة ، بل يبدو بالأحرى أنها موجهة - في مجال جدالي - إلى مخاطب معين هو الرجعية التقليدية المحافظة ( الطرقية ) ، ولا يلبث أن يناقضها ضمنا وصراحة عندما يكون المخاطب من دعاة التفتح على الغرب أو من حاملي « الأفكار المفسدة » .

ويمكن أن نقول ، إذا ما تجاوزنا هذه الخواطر ، أن فهم غلال الفاسي للتطور والتحول الاجتماعي يتم من خلال منظار قيمي وأخلاقي أكثر مما يتحقق في إطار موضوعي وتاريخي . فعوامل التحول الاجتماعي ، عندما لا تكون ميناغيزيقية - صراع الخير والشر - ( ٢١ ) تقلص كلها في العوامل الخارجية . وتقاس أهمية التحول بمعياري التقدم والتأخر بالنسبة إلى قيمة مطلقة هي ماضي السلف .

٤ . ٢ - ونجد في « النقد الذاتي » ( ص ١٠٤ ) نصا مهما يكشف لنا عن بعض خصائص هذا الفهم :

« ان التحول من طبائع الشعوب وأخلاق الكتل كلها حتى كتل الجمادات . ولكن هذا التحول يقع أحيانا في شكل حركة جيولوجية لا تشتمل على شيء من المتابعة ولا من التقدم . انه يعرض لبعض الكتل الأرضية أن تتحول من حالة تراب إلى حجارة ، وقد تكون هذه الحجارة رخاما أو مرمرًا ، ولكن تحولها يقفدها وجودها الأصلي كتراب ، دون أن تصبح في حالتها الثانية جزءا مما كانت عليه . انها هي ولكنها غيرها على كل حال .

فكذلك يقع لبعض الكتل البشرية التي تختلط بغيرها دون أن تعرف كيف تستفيد منهم ، انها تصاب بسخ كلي على الشكل الجيولوجي الذي قلنا ، وقد تتحول إلى أمه أخرى أكثر حضارة ومدنية مما كانت عليه ، ولكنها تفقد وجودها السابق . ( ... ) ومعنى هذا انها تنعدم وتصبح أنقاصا لكيان جديد ، مثلها مثل القصر الذي ينقض بناؤه ويصبح ركاما ، وقد يشاد في موضعه قصر آخر ، ولكنه لن يكون هو القصر المنهدم » .

يوضح هذا النص « إيمان » غلال الفاسي بأن التحول سنة طبيعية ، وبإمكاننا أن نبرز فيه مفهومين للتحول الاجتماعي ، الأول جذري مرفوض ، والثاني نسبي ومحافظ مقبول .

١ - يتم التحول الذي يقبله غلال الفاسي ، بكيفية تدريجية ونتيجة لعوامل داخلية غير محددة بدقة ، ويعتبر هذا النوع من التحول تقدما ، لأنه يحتفظ بالعناصر القديمة ، بغض النظر عن ، وبدون تحديد نوعية هذا الاحتفاظ : تواجد ، تراب أم تجاوز جدالي ؟ لأن المهم في نظره هو أن يكون « الأصل » وماضي السلف حاضرين بصفة دائمة . وهذا معنى تجريدي ولاتاريخي للتحول يتجاهل التناقض والعوامل الاجتماعية المحركة .

( ٢١ ) يقول غلال الفاسي في هذا الإطار : « ... وإذا كان هناك من عقدة تفاعل دائم فهي كفاح الخير والشر على هذه الأرض وصراع أتصارهما وتطور الدهن الإنساني في تفسيرهما » . النقد الذاتي ... ص ١٨٤ .

ب - أما التحول الذي يرفضه ويعتبره كارثة ومسخا فهو الذي يتم بكيفية « مفاجئة » و « دائما » نتيجة لعوامل خارجية ( كالتدخل الاجنبي ) ، انه التحول الجذري المؤدي الى نفي « الماضي » واقامة بنيات جديدة على انقاضه . ولا يرى غلال الفاسي في هذا النوع من التحول اية ايجابية رغم تاكيد على طابعه الكيفي : الانتقال من كيف الى كيف آخر ، من تراب الى رخام مثلا . بل ربما كان هذا الطابع هو ما يخشاه بالضبط ، لانه يعني الابتعاد عن الاصل والحقيقة الاولى .

واضح ان هذه النظرة الى التحول الاجتماعي غير جدلية ، لانها تفصل بين العوامل الداخلية ( مع تجاهل الالم منها ) ( ٢٢ ) ، وبين العوامل الخارجية ، كما تستعمل فيها المفولات الجدلية استتمالات مبهمة لا تدل على فهم واضح للتناقض الجدلي . فمن المعروف ان ليس هناك تحول اجتماعي يتخلى عن العناصر القديمة ( الاصاله ؟ ) بصفة مطلقة ، ولم يقل بهذا « هيجل » فبالاحرى ماركس .

ان كل تحول اجتماعي يحتوي على العناصر القديمة ، انما هناك كيفيتان لاحتواء هذه العناصر : احتواؤها جدليا أي استيعابها في كلية كيفية جديدة ، أو احتواؤها ترانيبا ، أي في كلية تتواجد فيها عناصر متفارقة تواجدا سطحيا ، وهذا هو اتجاه فهم غلال الفاسي للتحول .

٤ . ٣ - يكمن التحول الايجابي اذن ، في منظور سلفية غلال الفاسي ، في العودة الى الماضي وبعثه ، وهنا يصبح الماضي مقولة زمانية اساسية في تفكيره ، متحركة في الحاضر والمستقبل معا وربما احتوت هذه المقولة من الوهم اكثر من الواقع فضلا عن انها تفرغ أجزاء الزمان الاخرى من مدلولاتها .

يحول غلال الفاسي الماضي الى قيمة مطلقة يحيطها بهالة من التمجيد الاكيد انها لم تكن لهذا الماضي حتى عندما كان حاضرا . وفي هذه الكيفية لفهم الزمان رفض للصيرورة وتفكير خارج التاريخ : انها بحث عاطفي وراء زمان ضائع ، وهروب عن مواجهة مشاكل الحاضر في مسؤولية . لقد تحول الماضي في فكره الى قيمة اسطورية واقية ، تخفي التأخر والمعجز .

ويعتبر العودة الى الماضي تحرا ، يقول مثلا : « ... هنا الرجوع الى الماضي الذي يظهر في شكل تفهق الى الوراء هو نفسه ( تحرر كبير ) » ( ٢٣ ) . ولا يتردد في اطلاق قضايا عامة تحتاج الى الالبيات التاريخية ، في نظره مثلا ، لم تقم « ثورة مفيدة في بلد ما الا سبقتها دعوة للرجوع الى الماضي البعيد » ( ٢٤ ) . ونسائل هنا عن الماضي « البعيد » انني ارادت الثورة الفرنسية ( ١٧٨٩ ) العودة اليه ، و ثورة ١٩١٧ ؟ بل ، لكي نظل قريبين من الفهم السلفي ، ما هو الماضي البعيد الذي استهدف الاسلام - باعتباره ثورة اجتماعية - العودة اليه ؟

ويعتقد غلال الفاسي ، ان الموقف من مسألة الماضي ، هو من جملة ما لا يقبله في الماركسية ، يقول : « ... وهذه هي النقطة

( ٢٢ ) لا يؤمن غلال الفاسي بالصراع الطبقي كعامل للتحول . يقول : « ... واما التطاحن الذي يفرق بين عناصر الامنة بصفة نهائية ( ... ) ، فهو ما لا يجد مكانا في عقيدتنا وفي افكارنا الوطنية التي تعمل على تقارب الطبقات بل على حذف الفوارق الاجتماعية بقدر ما تسمح به طبيعة الكون والحركة » ( عقيدة وجهاد ، ص ٨٩ ) .

( ٢٣ ) غلال الفاسي « النقد الذاتي » ، ص ١٣٥ .

( ٢٤ ) نفس المصدر ، ص ١٣٥ .

التي لم ينتبه اليها ماركس ، فزعم انه يجب اهمال الماضي برمته » ( ٢٥ ) هل يمكن ان ينسب هذا الى ماركس حقا ؟ ان النصوص الماركسية حول اهمية الماضي كثيرة ، نذكر من بينها مثلا : « ان البشر هم الذين يصنعون تاريخهم ، ولكنهم لا يفعلون ذلك بكيفية حرة وفي شروط يختارونها بانفسهم ، ولكن في شروط موروثه ومستمدة من الماضي . ان نقل كل الاجيال الفانية يوجد كله في ادمغة الاحياء » ( ٢٦ )

٤ . ٤ - يبرز التحليل السابق ، في نفس الوقت ، التناقض في التفكير السلفي عند غلال الفاسي ( اشتماله على عناصر وافكار متناقضة ) ، وعدم فهم واضح للتناقض الجدلي كعامل في التطور التاريخي والتحول الاجتماعي . فضلا عن ذلك فانه لا يخلو من وعي زائف ، يكمن مثلا في الاعتقاد بالتعبير عن المصلحة العامة ، في حين انه فكر انتقائي محدود بالتعبير عن مصلحة طبقة معينة .

ان مظاهر الاستلاب الايديولوجي اعطاء الطابع الشمولي لشيء جزئي ، وادعاء التعبير عن مصالح كل الفئات الاجتماعية ، أي تعميم نظرة جزئية وتقديم رغبات فردية أو رغبات فئة اجتماعية معينة على انها رغبات للمجتمع بأسره . وتعتبر هذه النظرة خاصة من خصائص تفكير غلال الفاسي : يحول مشاعر ذاتية وجزئية - بغض النظر عن انها قد تكون صادقة من الناحية العاطفية - الى نظرية كلية والسي منهج للفهم والتحليل .

يرى مثلا ، ان من واجب الفكر السلفي ان يعبر عن المصلحة العامة وعن الرغبات الحقيقية للشعب ، لكي لا يترك مسألة توجيه الرأي العام خاضعة للصدفة أو « للقائد الهدامة والافكار المغدنة » . وكيف يتم له ذلك ؟ اذا عرف كيف يستخرج رغبات الشعب عن طريق معرفته « العميقة » لهذا الشعب . ولا تتطلب هذه المعرفة العميقة دراسة ومنهج علميين ، بقدر ما تتطلب قيام الفكر السلفي بعملية تأمل داخلي لاعمقه ليكتشف عن طريق المائلة لرغبات الشعب . يقول غلال الفاسي : « ... اننا نستخرجها ( رغبات الشعب ) بمعرفتنا بقرارة نفسه واعماق ضميره ( ... ) ، وهذا بالطبع يتوقف قبل كل شيء على معرفتنا بانفسنا » ( ٢٧ ) .

ولا يخفي ما ينطوي عليه هذا الموقف من امكانية الخداع الذاتي ، واحتمال للاسقاط : اعتبار مطالب ورغبات فئة اجتماعية معينة كـرغبات للشعب قاطبة .

٥ . ١ - ماذا يمكن ان نقول في ختام تحليلنا للاستلاب في الفكر السلفي من خلال غلال الفاسي ؟ لقد لاحظنا ان هذا الفكر كان في بدايته تفسيرا ايدولوجيا صافته الارستقراطية المغربية الدينية والعلمية والسياسية امام التدخل الاستعماري واحتلاله ، أي نسقا من الافكار الدفاعية لصد الهجوم الغربي . ولذلك طفت عليه الرغبة في رد هذا الهجوم المسيحي ، اكثر مما اسم بمحاولة جديدة لفهم العوامل الداخلية والخارجية التي أدت اليه ، فاهتم بالبحث عن الحجج التبريرية اكثر مما اهتم بالتحليل .

وتبريجا اتخذ هذا الفكر مظهرا رومانسيا واصبح غاية في حد ذاته : اصبح تفكيرا دفاعيا مبررا لعدم التفكير . ومن هنا اصل طابعه الانتقائي والتوفيقي ، اذ لم يستطع ان يدافع عن نفسه وأن يعبر عنها الا من خلال فكر آخر - فكر الخصم - ذي قوة ونفسود

( ٢٥ ) نفس المصدر ، ص ٨٠ .

K . Marx , Le 18 Brumaire de Louis Bonaparte . (26)

op . cit . p . 13 .

( ٢٧ ) غلال الفاسي « النقد الذاتي » ، ص ٧٨ .

وجادبية . فلجا الى مقولاته واساليبه والفاظه لكي ينتفذه ، فكان هذا الانتقاد سطحيًا مبصرًا عن موقف العاجز الذي يتلغف الافكار من كل الاتجاهات لمحاولة الدفاع عن النفس .

وفي خضم هذه الانتقائية الدفاعية ، افتقد هذا الفكر النظرية الموضوعية والتاريخية الى الاحداث والمشاكل الاجتماعية ، فتجاهل التناقض الجدلي والحركات الاساسية للتحويل الاجتماعي ، وقلص أزمة المجتمع المغربي في أزمة قيم وانحراف فكري . وعندما لم يستطع هذا الفكر ان يعي ويفهم لماذا تقف الامة التي ينتمي اليها ، التي بلغت في الماضي اوجًا عظيمًا من الحضارة ، منهاره ومشوهه امام قسوة القرب وتقوفه ، لم يجد امامه الا الماضي الذهبي عزاء وملجأ مسن ثقل الحاضر ومسؤولياته .

لقد حمل الفكر السلفي تناقضاته منذ ولادته لانه اهل من حسابه التاريخ وعوامل التطور الاساسية ، فاصبح عاجزا عن ان يكون نظرية جذرية للتحرر الاجتماعي . ومن الغريب ان علال الفاسي لاحظ هذا العجز منذ سنوات عديدة ولكنه لم يعمل شيئًا من اجل تجاوزه . فقد تبذرت له حدود نجاح وفشل الحركة السلفية سنة ١٠٥٢ ، أي السنة التي سبقت الازمة المغربية .

فقد رأى ، في محاضرة القاها في القاهرة عن حركة الاصلاح الديني في المغرب ، ان الحركة قد نجحت في اثارة الوعي وجعلت العالم الاسلامي كله اليوم منتبها الى ضرورة الخروج من الهوة التي تردى فيها منذ ازمان طويلة ولكنها قد فشلت في ان تتحول الى نظرية فعالة للعمل . يقول في هذا الصدد : « يمكن ان نقول ان السلفية فشلت كلما خرجت من طور البحث النظري الى طور الحركة العملية » (٢٨) .

( ٢٨ ) علال الفاسي « حديث المغرب في المشرق » ص ٢٧ .

لقد أبدى علال الفاسي هذه الملاحظات النقدية منذ حوالي عشرين سنة ، ولكن هذا لم يدفعه الى التساؤل عن اسباب هذا الفشل . وحتى لو افترضنا انه طرح على نفسه هذا السؤال فلن يكون جوابه خارجا عن السلفية ذاتها ، سيقول : ان فشل الحركة السلفية لا يرجع الى مبادئها بقدر ما يرجع الى ان هذه المبادئ لم تطبق بكاملها ( ص ٨٠ من النقد الذاتي ) . ولكن لماذا لم تطبق بكاملها ؟

ولم يتجاوز الفكر السلفي كما يمثل علال الفاسي ، في عهد الاستقلال ، أي بعد زوال التناقض الاستعماري - في شكله القديم - مرحلة الانتقائية ، بل لقد حول هذه الانتقائية الى منهج انعكس في اختياراته الاقتصادية والسياسية والثقافية ، فاصبحت انتقائية واعية ومقصودة تشكل وحدة مع ايدولوجية طبقية نشيطة وفعالة .

ومن الصعب علينا الا نربط الفكر السلفي عند علال الفاسي ، كما يبعث اليوم من جديد في المغرب - احيانا مع اصوله الطريقة نفسها - بمصالح طبقة اجتماعية معينة (٢٩) . لقد اصبح هذا الفكر معبرًا عن وجهة نظر الارستقراطية البرجوازية المغربية . وما « النقد الذاتي » الذي مارسه علال الفاسي سوى النقد الذي يمكن ان توجهه هذه الطبقة لحركة تطورها الذاتي ، وما ادعاؤه التعبير عن المصلحة العامة سوى ادعاء ايدولوجي .

ليس لدينا احسن من هذه العبارة لعلال الفاسي لختام هذا الفصل : « ان من حقوق الانسان الا يفرض جيل اليوم نظامه واعماله على جيل الفد » (٣٠) .

( ٢٩ ) نعارض هنا ما يقوله عبد الله العروي ( الايدولوجيا العربية . ص ٤٥ ) بان علال الفاسي ليس ناطقًا ايدولوجيًا لطبقة معينة ولكنه يمثل فقط حقبة من ثقافتنا الحديثة .

( ٣٠ ) علال الفاسي « النقد الذاتي » ، ص ١٦٧ .

صدر حديثا :

# الطريق الى الخيمة الاخرى

دراسة في اعمال غسان كنفاني

تأليف الدكتورة رضوى عاشور

دار الآداب